الحياة الطيّبة
السنة ٢٠
العدد ٣٤
صيف ٢٠١٦ م

قراءات علمية

أثر الآخر في الفكر الإصلاحيّ- الشيخ محمّد عبده أنموذجًا-

الدكتور محمّد النوّي[1]

مقدّمة:

عادةً ما يربط مؤرّخو الأفكار بين عصر النهضة العربيّة وغزوة نابليون مصر سنة 1798[2]، وهم على صواب في ذلك؛ إذ إنّ تلك الحادثة قد أيقظت العرب من سباتهم وطمأنينتهم ودفعتهم-على التدريج-إلى مواجهة قضيّة التقدّم، وإلى محاولة الإجابة عن السؤال: لماذا تقدّم الغرب وتخلّف المسلمون؟

والحقيقة أنّ تلك اليقظة لم يكن مردّها مدافع نابليون؛ بقدر ما كانت نتيجة حتميّة لالتقاء الغرب بالشرق، وهو التقاء تجسّد في حضور الغربيّين في الشرق؛ تجارًا، وخبراء، ومحامين، وملّاحين، وجنودًا مستعمرين، ومعمّرين، وصحفيّين...وتجسّد -أيضًا- في حضور تقنيّاتهم الجديدة؛ المحرّكات البخاريّة، والمطبعة، والبارود، والتلقيح، والآلة...؛ ذلك أنّه مع المهارات الجديدة كان لا بدّ للأفكار الجديدة أن تظهر؛ فالأفكار محتاجة

(1)باحث في الفكر الإسلامي، من تونس.

(2)انظر: حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939م)، ط1، بيروت، دار نوفل، 1997م. ويتّفق معه برهان غليون (اغتيال العقل)، وغالي شكري (أقواس الهزيمة)، وحليم بركات (المجتمع العربي المعاصر)، ولكنّهم يختلفون معه في نهاية عصر النهضة، فاقترح غليون 1948م، واقترح شكري 1952م، واقترح بركات 1919م.

هي الأخرى إلى وسائط: مؤسّسات نقل وترويج، وإلى محامل: أدوات نشر وتعبير تجعلها قادرة على السفر من مكان إلى آخر[1].

وتجسّد هذا اللقاء كذلك في حضور الشرقيّين في الغرب؛ حيث تمّ ذلك أواسط القرن التاسع عشر عن طريق البعثات العلميّة أو الرسميّة، مثلما هو شأن رفاعة رافع الطهطاوي(1801–1873م) أو خير الدين التونسي(1810–1890م)، وتمّ بعد ذلك عن طريق المبادرات الشخصيّة، مثلما هو شأن جمال الدين الأفغاني (1839–1897م) أو محمّد عبده (1849–1905م).

وقد بدا لنا الشيخ محمّد عبده–فضلًا عن شدّة تأثيره في الفكر العربي إلى اليوم–أكثر المصلحين احتكاكًا بالغرب، لأسباب ميّزته عن غيره من المصلحين؛ منها[2]:

- اطّلاعه على آثار كثير من أعلام الغرب؛ سواء عن طريق الترجمة إلى العربية أو عن طريق اللغة الفرنسيّة التي تعلّمها في سنّ متأخّرة. وكان يقرأ لتلاميذه في الأزهر–إضافة إلى كتب التراث–الكتب الأوروبّيّة المعرّبة في التاريخ والسياسة والاجتماع.
- ارتباطه بصداقة شخصيّة مع عدد من الغربيّين؛ منهم: ولفرند بلنت وهربرت سبنسر (1820–1903)م وجوستاف لوبون(1841–1931م) وتولستوي(1828–1910م).
- تصدّيه للردّ على بعض أعلام الغرب، لعلّ أشهرهم وزير الخارجيّة

(1)انظر:

Debray، (Régis):– cours de médiologie générale، Gallimard، 1991

–manifestes médiologiques، Gallimard.Paris،1994

(2)استفدنا في استخراج هذه الأسباب من سيرة الشيخ محمّد عبده، وقد وردت في المصادر الآتية:

– رضا، رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، ط2، القاهرة، دار الفضيلة، 2006م، ج1.

– أمين، عثمان: رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، لا.ط، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1955م، ص23–56.

– عبده، محمّد: الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: محمّد عمارة، ط1، بيروت، دار الشروق، 1993م، ج1، ص19–36.

وننبّه إلى نزعة التمجيد في هذه المصادر.

الفرنسي جابرييل هانوتو(1853–1944م)، ثمّ إنّ الشيخ محمّد عبده تلميذ السيّد جمال الدين الأفغاني ومترجم رسالته «في الردّ على الدهريّين» التي ردّ بها على أرنست رينان(1823–1892م).

-اشتغاله بالصحافة في عصر كانت فيه الصحيفة ترجمان الأفكار الجديدة ووسيلة العلم الرائجة وركيزته المحمولة. وقد كان الشيخ محمّد عبده محرّرًا صحفيًّا ورئيس تحرير الجريدة الرسميّة: الوقائع المصريّة،وهذا المنصب جعله يطّلع على الجرائد العربيّة والفرنسيّة بنفسه، ويحظى بمترجم للجرائد الواردة على مصر باللّغات الأخرى. أمّا في باريس، فقد أصدر مع أستاذه السيّد الأفغاني صحيفة «العروة الوثقى». نضيف إلى ذلك جمعه بين التدريس في الأزهر وتقلّد منصب مفتي الديار المصريّة من جهة،وبين التدريس في دار العلوم ومدرسة الألسن؛ وهما مؤسّستان حديثتان في عصره يؤمّهما كثير من الخبراء الأجانب من جهة أخرى.

- سفراته الكثيرة إلى فرنسا وإنجلترا وسورية وإيطاليا وشمال إفريقيا.
- انتظامه في جمعيّات عالميّة؛كجمعيّة التقريب بين الأديان التوحيديّة الثلاثة:الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة.

ولعلّ كلّ ما تقدّم قد جعل من الشيخ محمّد عبده شيخًا أزهريًّا على حرف لم يألفه الناس، حتّى إنّ «كثيرين كانوا يعترضون عليه قائلين: ما هذا الشيخ الذي يتكلّم باللغة الفرنساويّة، ويسيح في بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلّفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتي بما لم يقل به أحد من المتقدّمين، ويشترك في الجمعيّات الخيريّة!»[1].

ونحن نعتقد أنّ اللقب الذي التصق بالشيخ محمّد عبده-لقب الأستاذ الإمام-كفيل بالتعبير عن هذه الصلة الشديدة بالثقافة التقليديّة الموروثة وبالثقافة الغربيّة الوافدة في آن.

(1)أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، م.س، ص54.

وقد جعلتنا هذه السمات التي قدّمناها نهتمّ بأثر الآخر في أفكار الشيخ محمّد عبده الإصلاحيّة. وقد يتبادر إلى الذهن أنّنا سنعتني بتأثّر الشيخ محمّد عبده بما شاهده من أحوال الفرنجة في دعوته إلى تغيير ما بقومه في أبواب الاقتصاد والاجتماع والسياسة والآداب عمومًا؛ لكنّنا لن نطرق هذا الباب لكثرة طارقيه، وإنّما سنقصر نظرنا على أمرين:

- الأوّل: هو كيفيّة توظيفه للمصنّفات الغربيّة التي اطّلع عليها في دعوته إلى الإصلاح الديني.
- الثاني هو فتواه في إباحة الرسوم والتماثيل.

أوّلًا: كتاب «الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة» والاحتجاج بالكتّاب الغربيّين:

لقد اخترنا كتاب «الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة»–وهو مجموعة مقالات أنشأها محمّد عبده في الأصل سنتي 1901 و1902م، ونشرها في مجلّة المنار ردًّا على مقالات فرح أنطون(1874–1922م) في مجلّة الجامعة، وتدور المقالات جميعها حول اضطهاد الدين للعلم والفلسفة نقضًا وإبرامًا، وهي معروفة باسم «مناظرة محمّد عبده وفرح أنطون» – مثالًا نُجري من خلاله نظرنا في كيفيّة تمثّل محمّد عبده لآراء الكُتّاب الغربيّين وتوظيفه لها[1].

ويمكن القول إنّ الشيخ محمّد عبده قد دشّن في هذا الكتاب عصر الاستشهاد بأقوال الغربيّين؛ لأنّنا لم نرَ كاتبًا قبله قد نحا منحاه، أمّا الذين جاؤوا بعده فلا يكاد يخلو كتاب من كتبهم ولا مقال من مقالاتهم من الاحتجاج بالغربيّين والاستناد إليهم. وهو أمر طبيعي في رأينا؛ بما

(1)تناول محمّد الحداد مجمل مراجع الشيخ محمّد عبده؛ ضمن: عبده، محمّد: قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2003م، ص161–210. وقد استفدنا منه فوائد جمّة.
وانظر كذلك: عبده، محمّد: حفريّات تأويليّة في الخطاب الإصلاحي العربي، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2002م.

أنّ «القوم قد سبقونا إلى الحضارة بأحقاب من السنين»؛ بعبارة ابن أبي الضيّاف.

لقد صرّح الشيخ محمّد عبده مطلع الكتاب بالتزام هذا النهج قائلًا :«إنّني لا أستدلّ على رعاية الإسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم، وإنّما أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرّخين والفلاسفة من المسيحيّين»[1]، ومن هؤلاء يذكر «المستر درابر أحد المؤرّخين وكبار الفلاسفة من الأمريكان«(ص 20)، وجوستاف لوبون(ص110 و113)، وديلامبر(ص110)، وينسب أقوالًا كثيرة دون تعيين أسماء أصحابها إلى «فضلاء الأوروبّيّين»، و«بعض حكماء الغربيّين»، و«كثير من مؤرّخي الغربيّين»، و«أحد أفاضل مؤرّخيهم»، و«أحد رؤساء البروتستانت»، و«الكتّاب الفرنسيّين»، و«بعض فلاسفة الغربيّين»، و«فيلسوف آخر»[2].

ونلاحظ كذلك أنّه قليلًا ما يضع القول المقتبس بين ظفرين، وهو يعمد أحيانًا إلى النقل بالمعنى، بل ينقل صفحات كثيرة دون نسبتها إلى أصحابها ودون التنبيه إلى النقل[3].

ويمكن أن نجمل شهادات هؤلاء الغربيّين في النقاط الآتية:

- إنّ الإسلام صديق للعلم، حليف للعقل. وإنّ التجربة التاريخيّة للمسلمين تؤكّد عنايتهم الشديدة بالعلماء والفلاسفة.
- إنّ المسيحيّة قد اضطهدت العلم قبل الإصلاح الديني البروتستانتي وبعده، وهي جادّة إلى اليوم في الصدام(قرارات المجمع الفاتيكاني1869–1870م)؛ ما ينذر بكارثة في المستقبل القريب؛ لأنّ

(1)عبده، الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، ط3، بيروت، دار الحداثة، 1988م، ص20.
(2) م.ن، ص61؛ 101؛ 112؛ 114؛ 116؛ 173؛ 175؛ 192.
(3)ذهب محمّد الحدّاد إلى أنّ سبب ذلك يعود إلى عدم تعوّد الشيخ محمّد عبده على ثقافة الطباعة (انظر: الحدّاد، محمّد: محمّد عبده قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2003م، ص188، 204.)، ولكنّنا نراه في بعض المواطن ينبّه إلى النقل، ويستخدم الظفرين (انظر مثلًا: عبده، الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، م.س، ص20–21).

الكنيسة لم ترضَ بالفصل بين السلطة الدينيّة والسلطة المدنيّة ولم تستسغه[1].

- إنّ الدين والعلم رافدان أساسان لا يمكن التخلّي عن أحدهما في تحقيق إنسانيّة الإنسان، وإنّ التمدّن الحقيقي تمدّنان: ماديّ ومعنويّ، لكنّ أوروبّا الحديثة اعتنت بالنوع الأوّل على حساب النوع الثاني.
- إنّ التاريخ الأوروبّي قد قاد إلى انسداد الأفق: وهو انسداد يعرضه غيزو(1781–1874م)[2]–مثلًا–في شكل حدث هو «المصادمة الواقعة بين السلطة الزمنيّة المطلقة والسلطة المطلقة الفكريّة أو الروحيّة»[3]، وفي شكل مسلّمة فلسفيّة هي :«إنّ العقل البشريّ أضلّته السلطة المطلقة التي استولى عليها وأفسدته، وإنّ ذلك قاده إلى الغيّ والجور...فمن واجبات عصرنا أن يعترف بأنّ كلّ سلطة تحوي في ذاتها خللًا وزللًا وإفراطًا يستلزم تعيين حدّ محدود لها»[4].

ونحن نحسب أنّ جملة الأفكار التي عرضها الشيخ محمّد عبده في كتاب «الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة« مبتنية على أساس فحوى تلك الشهادات، وهي أفكار نعرض أهمّها فيما يلي لنستبين العلاقة بينها وبين شهادات الغربيّين:

- الإسلام صديق العلم والعقل، بل هو دين عقليّ بامتياز، وعلى العكس من ذلك المسيحيّة؛ سواء تعلّق الأمر بأصولها أو بتاريخها.
- لا سلطة دينيّة في الإسلام، ولا حروب من أجل العقيدة، ولا قمع للعلماء والفلاسفة، وإنّما سبب جميع ذلك هو السياسة لا الدين.

(1)نسخت الكنيسة الكاثوليكيّة قرارات هذا المجمع بقرارات المجمع الفاتيكاني الثاني (1959 – 1965م)، وبالتالي لم تكن تخوّفات هؤلاء سوى أوهام.

(2)كتاب فرنسوا غيزو «تاريخ الحضارة في أوروبّا« نشره سنة 1877م، وقد أعجب به الشيخ محمّد عبده ودرّسه لطلبة الأزهر.

(3)غيزو، فرنسوا: التحفة الأدبيّة في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّاويّة، ترجمة: حنين نعمة الله خوري، لا.ط، الإسكندريّة، مطبعة الأهرام، 1877م، ص460.

(4)م.ن، ص460.

- سبب تخلّف المسلمين في الحاضر يعود إلى المسلمين ولا يعود إلى الإسلام، وذلك بجمودهم وانحرافهم عن دينهم، وأمّا الحلّ فهو في عودتهم إلى الإسلام.

تقودنا هذه المقارنة الوجيزة إلى أنّ الغربيّين الذين يستشهد بهم الشيخ محمّد عبده يشعرون بأزمة وشيكة الوقوع في المجتمعات الغربيّة سببها في رأيهم طغيان العقل وكثافة حضوره، وتهميش الدين، وطغيان الصناعة والتقدّم المادّي ورقيق العيش على حساب الجانب الروحي في الإنسان. وأمّا الشيخ محمّد عبده فيبني أفكاره على أساس تحليلاتهم، دون أن يتنبّه إلى أنّ أزمة الغرب هي أزمة الشرق معكوسة: طغيان الخرافة وكثافة حضورها، ومركزيّة الدين، وغياب الصناعة، وشظف العيش، وغلبة الجانب الروحي على الإنسان. ثمّ إنّ هؤلاء الغربيّين لا يمثّلون في الحقيقة الاتّجاه الغالب على فكر الحداثة، بل يمثّلون تيارًا هامشيًّا يناوئ الحداثة الظافرة في القرن التاسع عشر.

إنّ هذا التعميم والإطناب في ذكر المؤرّخين والفلاسفة والحكماء الغربيّين، وحتّى رؤساء البروتستانت، ومنحهم هذه الألقاب الفخمة التي لا تعني في الواقع شيئًا-لأنّ لوبون ودرابر وديلامبر ليسوا مؤرّخين ولا فلاسفة، ولأنّ التسمية «حكيم» لا معنى لها عند الغربيّين، ولأنّ البروتستانت لا يعترفون بالرؤساء في الدين-هذا التعميم والإطناب والتفخيم ينهض بوظيفتين مزدوجتين:

- **الأولى:** هي الدفع بالقارئ العربي المسلم إلى حالة نفسيّة هي الاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام؛ وهو اعتزاز قد خلخلته مظاهر التفوّق الأوروبّي المشاهدة عيانًا. هذه الشهادات تنوب عن المشاهدات، ولا يمكن الطعن فيها بما أنّها صادرة عن غير أهل الملّة والجلدة. وهي كذلك شهادات تعترف بأمجاد الإسلام وانتصاراته في الماضي، فتعوّض لدى القارئ المسلم نفسيًّا حال الهزيمة والخيبة والتخلّف في

الحاضر. ولا ريب أنّ كثرتها توهم القارئ أنّ ذلك هو الموقف السائد في الغرب.

- **الثانية**: هي التأكيد على أزمة الحضارة الغربيّة؛ بسبب الصراع بين الدين والعلم، والمواجهة بين الكنيسة والحكومات الزمنيّة، وتخلّي الناس في الغرب عن القيم والأخلاق والدين، وفشل الإصلاح الدينيّ البروتستانتيّ... والدفع من ثمة بالقارئ المسلم إلى توهّم أنّ الغرب بدأ «يترك المسيحيّة». ولا ريب أن ذلك يعني أنّه «لا بدّ أن ينتهي أمر العالم إلى تآخي العلم والدين على سنّة القرآن والذكر الحكيم»[1].

أشكال التوظيف:

لقد اخترنا أن نسلّط الضوء على عَلَم بعينه من أعلام الغرب الذين شهدوا لدى الشيخ محمّد عبده على عظمة حضارة الإسلام لنقف على أشكال التوظيف لأثر من آثار الغرب وقد ارتحل إلى الشرق: هذا العَلَم هو جون ويليام درابر، وهذا الأثر هو كتابه:النزاعات بين العلم والدين[2]. لقد كان الشيخ محمّد عبده يحتفظ في مكتبته الشخصيّة بنسخة فرنسيّة من كتاب درابر، وهو كتاب عرّب تلميذُه محمّد فريد وجدي(1878–1954م) بعضَ مقاطعه وضمّنه في مصنّفه «تطبيق الديانة الإسلاميّة على نواميس المدنيّة« المستعاد لاحقًا باسم «المدنيّة والإسلام»[3]. وقد أشادت به مجلّة المنار في حينه[4].

ويمكن من خلال المقارنة بين متني الكتابين أن نقف على أشكال أربعة من التوظيف هي:

(1)عبده، الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، م.س، ص166.

(2) انظر:

Draper، (J. W) : Les conflits de la science et de la religion، Librairie Germer Bailliere، 1875

(3) الحدّاد، محمّد عبده، قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني، م.س، ص194.

(4)انظر: رضا، رشيد: مجلّة المنار، لا.ط، القاهرة، مطبعة المنار، 1315هـ.ق/ 1898م، ج2، ص109–112. ومن المفيد ملاحظة التقارب بين عنوان كتاب محمّد فريد وجدي «المدنيّة والإسلام» وكتاب عبده «الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة».

- **النقل:** نقل الشيخ محمّد عبده عن درابر صفحات كثيرة تربو عن الخمسين صفحة باللّفظ حينًا وبالمعنى أحيانًا؛ وتتعلّق جميعها بتاريخ الإسلام والمسيحيّة في علاقتهما بالعلم،وتساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من اليهود والصابئة والمسلمين، واشتغال المسلمين بالعلوم الأدبيّة والعقليّة وعلومهم واكتشافاتهم وعنايتهم ببناء المدارس، وطبيعة الدين المسيحي المناقضة للعلم، واضطهاد المسيحيّين للعلماء قبل الإصلاح البروتستانتي وبعده، وتأزّم العلاقة بين الحكومات الأوروبيّة والكنيسة الكاثوليكيّة أواخر القرن التاسع عشر، وبداية التخلّي عن المسيحيّة[1].
- **الحذف:** ومثاله أن يحذف عبده الأفكار التالية الواردة لدى درابر: المحمّدية هي الإصلاح الأوّل داخل المسيحيّة، وليست المحمّدية سوى فرقة النساطرة المعترضة على عقيدة التثليث والمحيية للتراث الإغريقي الأرسطي[2]. وقد انتشرت بقوّة السيف وثأرت لنفسها من المسيحية الرومانية[3]. أمّا ما وصل إليه هؤلاء من علوم وفلسفات فمناقضة للقرآن متلائمة مع التراث الأرسطي، وقد منع تشبّث الساسة بالتقاليد الأرسطيّة سفك دماء العلماء والفلاسفة[4].
- **القلب:** ومثاله أنّ سبب ازدهار العلم في الحضارة العربيّة الإسلاميّة مثلما يعرضه درابر هو تجاوز ورثة محمّد القرآن، ودخول الأعاجم من يهود وصابئة في الحضارة الناشئة، وتحرّر الساسة من العامل

(1)قارن-مثلًا-بين الصفحات 19، 28-55، 101-115، 168-174، 177 من كتاب الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة؛ بالصفحات 73-84، 109-130، 154-156 من كتاب درابر (النصّ الفرنسي).

(2)انظر:

Draper (J. W.) : Les conflits de la science et de la religion، chap III : conflit touchant la doctrine de l'Unité de Dieu، la première réforme ou réforme du Sud، pp 4972-.

(3) Ibid;p59 et 61-72

(4) Ibid;p75-77

وقد عرض درابر مثالًا هو توصّل العلماء في الإسلام إلى القول بكرويّة الأرض بالرغم من أنّ القرآن يراها مربّعة مسطّحة ذات أطراف تشدّها الجبال (انظر: ص 77 من النصّ الفرنسي).

الديني[1]. يقلب الشيخ محمد عبده هذه الحجج؛ فإذا سبب ازدهار العلم والفلسفة هو تشبّث المسلمين بالإسلام، أمّا سبب انحدار العلم والفلسفة فهو استعجام الإسلام -أي دخول العناصر غير العربيّة فيه وامتلاكهم زمام أموره-وبلايا السياسة[2].

- **الاستثمار**: لقد خلص درابر من خلال عرض الصراع بين الدين والعلم منذ نشأتهما إلى عصره، إلى أنّه لا يمكن التوفيق البتّة بين العلم والكنيسة الكاثوليكيّة، أمّا البروتستانتيّة فيمكنها أن تكون صديقة للعلم والفلسفة إذا ظلّت وفيّة لمبدأ«لوثر» القاضي بحقّ كلّ فرد في تفسير الكتاب المقدّس حسب فهمه. وأشار درابر إلى ظهور التحالف الإنجيلي أو الإنجيليّين خريف سنة 1873م بنيويورك، وهو طائفة من مبادئها الأساسية أنّ «الدين والعلم توأمان، أخوان شقيقان قد رضعا من ثدي واحد»[3].

تلك هي في الحقيقة الفكرة التي دعا إليها الشيخ محمّد عبده، وكرّس لها كامل كتاب الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة: فكرة الصداقة بين الدين والعلم، لكنّ دون أن ينسبها إلى درابر، بل إنّه قد استعاض عن اللوثريّة أو الإنجيليّة بالإسلام.

ثانيًا: فتوى في إباحة الرسوم والتماثيل:

وردت هذه الفتوى ضمن «فصل من رحلة الأستاذ الإمام الأخيرة إلى

---

(1)Draper (J. W.) : Les conflits de la science et de la religion، chap IX:Renaissance de la science 84-dans le sud;pp73

(2) انظر: عبده، الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، م.س، ص 17-18، 132-134، 187.

(3) 262-Ibid;p255،voir aussi pp249

ومن الأفكار التي استثمرها الشيخ محمّد عبده دون نسبتها إلى صاحبها كذلك فكرة المفارقة في تقاسم السلطة بين الحاكم الروحي والحاكم الزمني؛ لأنّ الإنسان روح وجسد متّحدان لا يمكن تقاسمهما. قارن الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، ص5؛ النزاع بين العلم والدين، ص247(النصّ الفرنسي).

أوروبّا وجزيرة صقلّية سنة 1902م»، ونشرت في مجلّة المنار في حينها[1]. يفتتح الشيخ محمّد عبده هذا الفصل بوصف كنيسة بالرمو(Palermo) الكبيرة، وأديرتها، ومقبرة الكبّوشيّين، والمكتبة العموميّة، ودار المحفوظات، والمتاحف الكثيرة المنتشرة وما فيها من صور وتماثيل، ثمّ يورد ما يلي :«الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها: لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب... وكذلك الحال في التماثيل. هل تدري لماذا؟ إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل. فإنّ الرسم ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى (...) إنّ هذه الرسوم والتماثيل تستحقّ أن تسمّى ديوان الهيئات والأحوال الاجتماعيّة(....) ربّما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي: ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلاميّة؟ فأقول لك: إنّ الراسم قد رسم، والفائدة محقّقة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحي من الأذهان؛ فإمّا أن تفهم الحكم من نفسك، وإمّا أن ترفع سؤالًا إلى المفتي... وأمّا إذا أردت أن ترتكب بعض السيّئات في محلّ فيه صور؛ طمعًا في أنّ الملكين الكاتبين أو كاتب السيّئات على الأقلّ لا يدخل محلًا فيه صور؛ كما ورد، فإيّاك أن تظنّ أنّ ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل...»[2].

ويمكن أن نستخلص من هذه الفتوى الملاحظات الآتية:

- لقد جمع الشيخ محمّد عبده فيها بين «أدب الرحلة« و«أدب الفتوى»، أو لنقل بين غرضين من أغراض الكتابة:الجدّ واللّهو. والطريف أن يحيل الشيخ محمّد عبده مخاطبه الافتراضيّ إلى المفتي، وليس المفتي في

(1) انظر: رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، م.س، ج2، ص473–502؛ انظر كذلك: رضا، مجلّة المنار، م.س، ج6–7؛ وعبده، الأعمال الكاملة، م.س.

(2) رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، م.س، ج2، ص498–500.

ذلك الزمان سوى الشيخ محمّد عبده نفسه. هذا التداخل بين الجدّ والهزل بيّن في سخرية المفتي في نهاية النصّ من المتمسّكين بالحديث النبويّ :«**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**»[1]. ولئنْ كان هذا الشكل الجديد من الفتوى انزياحًا عن أدب الفتوى عمومًا-وذلك بغياب المستفتي وتغيّر المقام وعدم التعويل على النصوص الدينيّة- فإنّه انزياح كذلك عن أدب الرحلة من الاكتفاء بتسجيل أحوال البلاد والعباد وإبداء الرأي فيها إعجابًا وتعجّبًا واستحسانًا واستهجانًا، إلى النظر في حكم ذلك في الشريعة الإسلاميّة.

- إنّ وصف الشيخ محمّد عبده للصور والتماثيل قائم على فكرة التلاقح بين الحضارات، بل على فكرة مفادها أنّ الاختلاف في ظواهرها إنّما يخفي تماثلًا في بواطنها. ولعلّ ذلك بيّن في المضاهاة بين الرسم والشعر: «الرسم ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى»، وفي المضاهاة بين «محافظة القوم على هذه المصنوعات« و«محافظة السلف على الشعر». ونحن نعتقد أنّ هذه الفكرة جليلة القدر في عصر الشيخ محمّد عبده؛ لأنّها تحقّق للمُصلح فائدتين:الأولى هي الردّ على نزعة المركزيّة الأوروبّيّة التي عبّر عنها أرنست رينان في مناظرته مع السيّد الأفغاني-أستاذ الشيخ محمّد عبده-والقاضية بعدم قابليّة الحضارة الإسلاميّة للتقدّم، والثانية هي التأصيل لنزعة التوفيق بين الموروث والوافد، وهي النزعة التي كرّس الشيخ محمّد عبده جهوده الإصلاحيّة للدفاع عنها.
- تعبّر هذه الفتوى عن أصلٍ بنى عليه الشيخ محمّد عبده الإسلام، تمامًا كما بنى عليه إصلاحه الدينيّ، هذا الأصل هو :«تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض»[2]؛ فحكم الصور والتماثيل المستند إلى النصوص الشرعيّة، والمبرّر بـ«مضاهاة خلق الله« لا يسنده العقل

(1)النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم، لا.ط، بيروت، دار الفكر، لا.ت، ج6، ص157.
(2)عبده، الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة، م.س، ص70-71.

بما أنّ هذه الصور والتماثيل إنّما هي «مصنوعات»، وبما أنّ «الفائدة محقّقة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال قد مُحي من الأذهان». وليس الهزل في نصّ الفتوى سوى ضرب من ضروب الجدّ والاستدلال العقلاني:لا ينجيك فعل السيّئات في بيت فيه صور وتماثيل من تقييد الملائكة الكاتبِين لما فعلت.

- إنّ الاحتجاج بفوائد الصور والتماثيل يُنبئ عن نظرة للزمان متحكّمة في الفتوى وفي الفكر الديني عند الشيخ محمّد عبده عمومًا؛ هي الإيمان بأولويّة الحاضر والمستقبل على الماضي، أي أولويّة الخلف على السلف. يقول الشيخ محمّد عبده متحدّثًا عن فوائد الصور والتماثيل :»...وهذا ممّا يفيد في تحقيق المعاني التاريخيّة واللغويّة فائدة لا يعرف مقدارها إلّا من يسمع اسم اللّامة والدلاص والدّرع والخوذة وعمامة الحرب، ثمّ يراجعها في القاموس، وبعد ذلك لا تستقرّ في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الألفاظ...أمّا الجماعة فقد رسموا صور هذا كلّه في ما كتبوا من كتب اللغة والعلوم...أمّا إذا قال لك صاحب القاموس:الجوز شجر فماذا تستفيد من هذا؟ وكيف يمكنك أن تحدّث عن هذا الشجر إذا كنت كاتبًا، أو شاعرًا، أو طبيبًا، أو عالمِـًا، أو أديبًا؟»[1].
- يفيدنا ما تقدّم في الوقوف على خصيصة قلّما انتبه إليها الناظرون في علاقة الغرب بالشرق عمومًا، والناظرون في هجرة الآثار والمعرفة خصوصًا؛ هي تأثير الطباعة في الفكر. لا نعني هنا تيسير الطباعة لعمليّة تداول المعرفة، وإنّما نعني دور الطباعة في تفريد الفكر وفي نزعته النقديّة التحليليّة. إنّ الطباعة قد مكّنت الإنسان الحديث من الوصول إلى المعرفة بنفسه، ومكّنته من بنائها بمفرده، ومكّنت الطباعةُ المعرفةَ من صفة العموميّة التي تجعلها ديمقراطيّة؛وذلك ما تشير إليه جملة الشيخ محمّد عبده الفريدة الواردة في سياق الفتوى:

(1)رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، م.س، ج2، ص497-498.

«إمّا أن تفهم الحكم بنفسك، وإمّا أن ترفع سؤالًا إلى المفتي». إنّ مكمن فرادة هذه الجملة إنّما هو صدورها عن شيخ الإسلام ومفتي الديار المصريّة من جهة، ودعوتها إلى تفريد الوعي الدينيّ؛ بمعنى استقلال المؤمن عن الجماعة والفرقة والطائفة والمذهب والشيخ من جهة ثانية[1]. أليس ذلك هو جوهر الإصلاح الديني؟

ثمّ إنّ الشيخ محمّد عبده قد خبِر اختلاف ثقافة المخطوط عن ثقافة المطبوع، وجرّب كليهما:كان يدرس كتاب الشفاء لابن سينا في الأزهر مخطوطًا[2]، وتعرّف إلى الكتب المطبوعة، وكان يعرف المعاجم العربيّة المخطوطة، وقد حقّق أحدها وأعدّه للطبع-نعني كتاب المخصّص لابن سيده؛ وهو معجم يعتني بالفوارق بين الأحوال والأشياء-وعرف -كذلك- المعاجم الفرنسيّة عند تعلّمه الفرنسيّة وعند ترجمته لبعض آثار الغربيّين. وقد لاحظ بدون شكّ الحاجة إلى الرسوم والصور في باب المعاجم اللغويّة والموسوعات العلميّة.

خاتمة:

إنّ أشكال التوظيف المختلفة التي انتهجها الشيخ محمّد عبده في التعامل مع آثار الغربيّين تؤكّد على تحكّم نزعتين في فكره وفكر غيره من مفكّري الإسلام منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم[3]؛ وهي:

(1)انظر: كذلك قوله في الإسلام والنصرانيّة مع العلم والمدنيّة: «لكلّ مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف»، ص76.

(2) انظر: أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، م.س، ص72، 74.

(3)إنّ تنازع الشقّين التراثيّ (ممثّلًا برشيد رضا ومحمّد فريد وجدي وغيرهما)، والحداثيّ (ممثّلًا بعليّ عبد الرازق ولطفي السيّد وغيرهما) على تراث عبده قد أثّر في سيرورة الفكر العربي. ويكاد الفكر العربي الحديث ينقسم برمّته إلى ثلاثة تيارات: أنصار التراث، وأنصار الحداثة، وأنصار التوفيق بين التراث والحداثة. نستثني من ذلك بعض المفكّرين الذين انتبهوا إلى وهميّة التعارض بين التراث والحداثة، شأن عزيز العظمة. انظر: أعماله الآتية:

- التراث بين السلطان والتاريخ، لا.ط، الدار البيضاء، نشر: عيون، 1987م.
- الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع، ط1، لندن، دار الساقي،19925م.
- دنيا الدين في حاضر العرب، ط1، بيروت، دار الطليعة، 1996م.

- النزعة الأولى؛ هي نزعة الانتقائيّة؛ وذلك بتبنّي الأفكار التي تسدّ حاجة نفسيّة لدى المسلم، وتمدح الإسلام والعرب، وتردّ ما لم يوافق هذه الغاية. ولعلّ سمة الانتقائيّة تتجلّى -كذلك- في قبول الحداثة المادّيّة وردّ أسسها الفلسفيّة والسياسيّة (التيّار التوفيقي).
- النزعة الثانية؛ هي نزعة اللاتاريخيّة؛ وذلك بتبنّي فكرة الإسلام الجوهراني الماهوي؛ أي الإسلام النصّي وقطع صلته بالتاريخ. وقد عبّر روّاد الإصلاح عن هذه الفكرة بالتمييز بين الإسلام والمسلمين. والحال أنّه لا إسلام البتّة دون مسلمين، وإنْ تعلّق الأمر بالنصّ القرآني؛ لأنّ القرآن كان في جوهره نصًّا محاورًا للجماعة المعاصرة للوحي، يراعي أوضاعها، ويجيب عن أسئلتها، ومن ثمّة كان مُنجَّمًا. وتعدّ قراءة عبده لعلاقة الإسلام بالعلم والفلسفة اعتمادًا على مصنّف درابر مثالًا صارخًا على سمة اللاتاريخيّة، وذلك حين يتتبّع خطّ سير الحضارة الإسلاميّة، فينسب لحظات ازدهار العلم والفلسفة إلى تشبّث المسلمين بالإسلام، وينسب لحظات انحدار العلم والفلسفة إلى انسلاخ المسلمين عن الإسلام. وتتجلّى هذه النزعة كذلك في توهّم استنبات أسئلة ما بعد الحداثة في تربة لم تعرف الحداثة بعد.

ولعلّ غلبة هذه القراءة التلفيقيّة وغلبة هذا التيار الفكري (التوفيقي) ممّا يعيق علاقة الغرب بالشرق، وهو أساس غياب النظرة الموضوعيّة إلى الذات وإلى الآخر؛ ذلك أنّنا لا نزال إلى اليوم ننظر إلى الغرب من مرآة الشرق، وننظر إلى الشرق من مرآة الغرب.